الهوى وحديث العينين

ديوان للشاعر فؤاد الخشن

***

بين « سوار الياسمين » ، مجموعة الشاعر فؤاد الخشن الاولى وبين « الهوى وحديث العينين » ديوانه الذي صدر مؤخرا عن مؤسسة « صحافيا » في بيروت ، وهو مجموعته الشعرية الخامسة، رحلة سبع سنوات عبر عالمين هما دنيا فؤاد الخشن الفنية : عالم الاشواق الغزلية والصبابات ، وعالم الريف الحالم ومباهج الطبيعة والالوان .

ولقد كنت أتتبع دائما اثار هذا الشاعر ، وأواكبه في تطوافه متوقفا معه عند كل مرفأ ، مرافقا اياه الى كل أفق ، أعايش حروفه وأنغامه في مختلف حالات التجربة والمعاناة كما يمكن أن تحياها وتجسدها ريشة هذا الاديب بالذات ، وكما يمكن أن تتقبلها وتنفعل بها ذائقتي كقارىء ناقد لي أنا أيضا دروبي الخاصة في المعاناة ومسالكي في الفن والحياة والفكر .

والحق انني كثيرا ما أحببت شعر فؤاد الخشن . ولعل أبرز ما أحببت فيه مطلاته على الرحاب المشمسة من ربفنا اللبناني ، وأشياء طبيعتنا الحميمة الوادعة ، كما أحببت بساطة رؤياه ، وعفوية تعبيره ، وطرب أنغامه ، وغنى موسيقاه ، ووفرة احساسه وصفاءه .

ومثلما أحببت فؤاد الخشن شاعرا ، أحببته ولم أزل انسانا شفاف الخاطرة متلألىء الخلق حيي النسمات حتى لكأنه شاعر في حضوره ، حاضر في شعره على الدوام . وهذه عندي أولى دلائل التأصل الشعري في النفس ، والانعكاس الانساني في الشعر ، ولربما بسبب هذا الترابط الوثيق والمتوافق بين شخصية الشاعر في الحياة وبين شخصيته الفنية في الشعر قام في نفسي التقدير الذي أكنه له ولادبه .

وعلى الرغم من ذلك التقدير لم أحاول أن أكتب قبل اليوم كلمة تقييم واحدة من دواوينه الاربعة الصادرة قبل هذا الاخير . لسبب هو انني لم أشعر يوما بأن شعره في أخص خصائصه الجوهرية ، شكلا ومحتوى ، يجسد أعمق احساساتي وتطلعاتي ويعبر عنها باللغة التي أؤثرها وسيلة فنية لنقل هذه التطلعات وتلك الاحاسيس .

ورغم تناقضات أساسية أعتقد انها تضعنا على صعيدين مختلفين في الموقف العام من الفن والحياة فان ثمة أكثر من نقطة التقاء يمكن أن تكون أرضا مشتركة صالحة لان اتجاوب فيها مع شعره ، وجديرة بأن تبرر الى حد بعيد تقديري البالغ له ولادبه . فأنا ممن نشأوا في الريف وتذوقوا أطيب حلاواته ، وممن لا تزال لوحاته تتألق في أعماقهم بأبهى الصور والرموز . لذلك يطربني شعر الريف عند فؤاد الخشن ، وهو شعر قد لا ينازعه على حمل رايته في الادب العربي الحديث منازع . وأنا ممن يحبون الجمال في الوجوه والاجسام ، وممن لهم قلوب تهفو وتضطرب بنوازعها وأشواقها . لذلك يروق لي الكثير الكثير من قصائد هذا الشاعر وتحملني مؤثراتها الى عوالم من الحب والغزل دافئة رقيقة . وأنا ممن تثقفوا أول الامر بثقافة كلاسيكية في الفنون والآداب ، وممن لا يزال الاثر الكلاسيكي الاصيل يفجر في وجدانهم جداول الصور وأنهار الذكريات . وفؤاد الخشن قد مهر في هذا الضرب من الصوغ الكلاسيكي للشعر مستوعبا تجاربه التراثية العريقة قديمة وحديثة ، مسبغا عليه أزهى ما في الرومانسية من ألق وحرارة ، وأطرف ما في الرمزية من نسج وايحاء . حتى باتت صلابة ريشته ومرونتها في هذا الاتجاه ذات جلال وسلطان .

بيد ان آفاق الحياة عندي ليست تنحصر فقط في عالمي المرأة والطبيعة . وهما بعد كل حساب المحيطان اللذان يبحر فيهما زورق فؤاد الخشن متنقلا من مرفأ الى مرفأ ومن جزيرة الى جزيرة . تتبدل على دروبهما الاشكال والحكايات والمناورات والوجوه ، لكن ليست تتبدل من حولهما الموانىء والجزائر . وعندي ان أفق الحياة الاوسع انما هو ايضا ، وقبل كل شيء أفق اجتماعي مصيري ، في قلبه تولد سائر الآفاق الانسانية الاخرى ، وتتحدد سائر العواطف والمشاعر والافكار ، ومن الوانه تتلون ، وداخل اطاره الفسيح تعيش ، وتتنفس ، وتتشعب . وهذا الافق المصيري الاوسع هو ما لم أجده الا لمحا خاطفا في بعض قصائده ولم أقع له من قبل في شعره الا على تلويحات بعيدة خافتة .

هذه واحدة أولى صرفتني حتى الان عن الاحتفال الجدي بأي من دواوينه الاربعة الصادرة قبل مجموعته الاخيرة « الهوى وحديث العينين » .

اما ما صرفني ايضا عن الاهتمام الكلي بشعره من مسائل الجمالية الاسلوبية فكوني أرى لغة الشعر الفنية تختلف الى حد عما يراه ويجيده صاحب « الهوى وحديث العينين » في هذا المجال . فأنا أتجه الى أن أعتبر اللغة الشعرية انما تتميز عن لغة الادب عموما في كونها لغة رمز وأسطورة وايحاء تعبر بالصور والاشكال عن محتواها من الاحاسيس والافكار والمعاني . واتجه الى أن أرى الشعر خلاصة رؤيوية عامة لمواقف وتجارب تفصيلية عديدة يعانيها الشاعر ويتخطاها جميعا ليعاود سكبها من جديد في اطار فني يجسد خلاصة معاناته بأشكال وألوان من الخلق يترجم فيه مجمل تلك الانعكاسات التفصيلية الحميمة والخاصة الى صور وحكايات ورموز تختصرها عموما وليست تبرزها مجزأة مفصلة مباشرة . ومتى ما انتفت من الشعر عملية تحويل التجربة من مادتها المباشرة والخاصة الى مادة تنصهر فيها الجزئيات في كل فني جديد عام ومتماسك ، كف الشعر في نظري عن أن يكون عملا فنيا حديثا جديرا بما تفترضه الرؤيا من عمق وشمول .

ومع انني أحترم الى أبعد حد لغة فؤاد الخشن الكلاسيكية المزدهرة ضمن اطارها الفني الخاص ، فانه لا يسعني اعتبارها مثالا للغة الشعر كما أفهم الشعر وأتذوق الشعر . ومع ذلك لا أستطيع أن أنفي عنها الشاعرية مطلقا اذا أخذتها في اطار المذهب الفني الذي يسير فيه فؤاد الخشن بين صفوف الطليعة وفي مقدمتهم .

ولقد دفعني الى الكتابة عن فؤاد الخشن في ديوانه هذا الاخير خروج ملحوظ عن آفاقه المأثورة في المعاناة أولا . وعافية متناهية في أسلوب الاداء ثانيا .

فمنذ باشرت قراءة الديوان ألفيتني أمام السمات العامة التي أعرفها لشعره من حيث الاداء اللغوي والشكل الفني لقصائده لكنها سمات تشعشع بأبهى أنوارها وحلاها ، وتشهد لصاحبها ببلوغ المرتبة العالية في صنعة الابداع ، من تشدد في التزام الاصول الكلاسيكية على طواعية ومرونة في البث الموسيقي الرقيق ، الى تكثيف في الصور وابتكار الرموز وربطها وتلاحمها في تسلسل وتماوج وطول نفس ، الى تجاوز اطار الوزن الكلاسيكي أحيانا ليتصرف بالتفاعيل والقوافي تصرفا يناسب محتوى اللوحة النغمية ومضمونها من مشحون النفس ، وخواطر الوجدان . الى تهذيب الالفاظ وصقلها وجلائها حتى لا تقع العين في بنائها العالي الا على الحجارة الكريمة الوهاجة . الى غير ذلك مما يجعل شعره من هذه الوجهة الشكلية والاسلوبية باقة ربيعية من أطيب ورود الكلاسيكية وأمتعها للذائقة الفنية الاصولية .

أما أين يتجاوز فؤاد الخشن حدود كلاسيكيته المألوفة في شعره وفي شعر هذا الاتجاه الفني اجمالا فذلك في الافق الانساني والمصيري الجديد الذي بدأ الشاعر يرتاد أجواءه ويجابه أعاصيره بجناحين

طليقين من عاطفة وطنية وقومية . وهذا بالفعل ما أثار اهتمامي بالدرجة الاولى . لانه لون جديد حار في شعره لم نألفه عنده كما ولا نوعا قبل اليوم . ففي باب « أعاصير في الجراح » ثلاث عشرة قصيدة تعكس اهتمامات وطنية ومشاعر قومية غنية حول بعض قضايا التحرر ولا سيما قضية فلسطين في وضعها التاريخي الراهن . وما كانت فلسطين وغيرها من قضايا التحرر في العالم لتحظى قبل هذا الديوان بمثل ما تحظى به في هذه المجموعة الاخيرة .

وقد لا يكون اتساع أفق الرؤيا الشعرية وحده هو الثقل الجديد في شعر فؤاد الخشن بل يضاف اليه شيء اخر هو وضوح هذه الرؤيا وثوريتها الى حد ظاهر يبشر باستمرار تصاعدها وتأصلها ، كما نرجو أن يتسع خطها الافقي أيضا وأيضا في المستقبل ليستوعب المزيد مما تعانيه شعوب الشرق العربي والعالم الساعي الى التحرر من أزمات مصيرية انسانية تطبع تاريخه الحديث وتضع على كاهل الشعراء والفنانين من أي اتجاه فني كانوا مسؤولية المشاركة في وعي التاريخ والاعداد لصنعه .

بيروت — ميشال عاصي

« الجواد والسيف المكسور »

ديوان للشاعر جيلي عبد الرحمن

***

« وقبيلتي عيناك مرج فيهما يبكي الكنار » .

لماذا يبكي الكنار ؟! أو لماذا يبكي الشاعر جيلي عبد الرحمن ، ويفيض منه ذلك الحزن الانساني العميق من ديوانه الجديد « الجواد والسيف المكسور » !؟ أيبكي الشاعر نفسه ، أم يبكي انسانا معينا في قريته أو وطنه ، أم يبكي الانسان عامة في القرن العشرين !؟

ان ديوان « الجواد والسيف المكسور » لا يمثل مرحلة معينة من حياة الشاعر ، وهو كذلك لا يمثل زاوية محددة من نضال الانسان ، انما هو رحلة حافلة تغطي عمر الشاهد كله منذ أن نضج وتحددت ملامحه كشاعر ، وهو تجربة الشاعر كانسان يحس الحياة ويتذوقها ويعانيها ، ويتفاعل مع مجتمعه ويعيش آلامه وآماله ، ويهزه ما يعانيه الانسان على وجه الارض ، فيبكي مأساة الانسانية في القرن العشرين ، ويرفع يده ليشير الى كل ما في الحياة من زيف وعفن ، ويهفو الى اليوم الذي تنطلق فيه الحياة مضيئة ، خالصة من الاستغلال والقهر والظلم .

نحن أمام شاعر بسيط واع ، عاش القرية والمدينة في السودان ومصر ، فعانى حياتهما وارتبط بمشكلاتهما وأصبحا له وطنا يرتبط بمصيره . فهو حينما يتحدث عن القرية لا تكاد تعرف أفي السودان هذه القرية أم في مصر ، وحينما يناجي جده العظيم « النيل » لا تكاد تفرق بين نيل يجري في السودان أو يجري في مصر .. ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك من الارض العربية الى موسكو ينهل منها العلم ، حيث يعيش عالما مختلفا ، وتجربة فريدة .

هذه البساطة وذلك الوعي يتجليان في معظم الموضوعات التي يتناولها الشاعر ، بل يحددان الزاوية التي يلتقط منها صوره ، ويطبعان شعره بطابع السلاسة والهدوء والعمق ، ويثريان عنده هذا الاحساس العميق بالطبيعة ، والايمان المطلق بالانسان .

فهو يتناول حياة الانسان العظيم البسيط الذي يصنع الحياة ، يتناول حياة الفلاح في القرية .. مدركا قيمة الفأس في يده .. والكروم التي يرويها بعرق جبينه وقلبه ، فنجد له مكانة من التقدير في قلب الشاعر .. ف « الفلاح محمود على شواطىء البحر الاسود » :

فلاح لم يشبع بعد من الشمس
عيناه السمراوان على نبض الفأس
في قلبي مأتمه .. شيعه الفقراء الى الرمس
حين انهدت قوته ذات مساء

و « قصة فلاح » :

حياتي أنا دمعة في التراب
وجمرتها أطفئت في اللهب
زرعت الكروم على راحتي
ورعرعتها من جبين وقلب
وعدت الى البيت أبكي خطاي
وأحضن بين فؤادي الحطب

وحينما يصور « عودة درويش » الفلاح خلف جمله الهزيل :

والشمس قد غطست هناك
ومشى الظلام على الحقول
يضم أكواخا كئيبه
من تحت أذرعه الرهيبه
لا شيء يا درويش
لا عرس هناك ولا مصيبه

فهي قصة الفلاح دائما ، الذي يزرع الكروم ، ولا يعود الا بالحطب ، ويعيش في قرية كئيبة لا ترى النور الا في عرس أو مصيبة ، لكننا نتذوقها تذوقا جديدا من خلال قلب شاعر له مميزاته الخاصة ، ويفيض قلبه بالحزن الحقيقي من أجل هذا الفلاح .

واذا كانت سمة الحزن تغلب على معظم قصائد الديوان ، فانما يرجع ذلك الى احساس الشاعر بالغربة ، والحنين الدائم الى مواطن صباه وكفاحه ، كما يرجع الى شعوره بالضياع مع الناس في قلب المدينة ، واشفاقه على نفسه وعلى غيره من هذا الضياع ، ومن قسوة الحياة والصراع من أجل لقمة العيش :

وحائرون مثلما رأيت في المدينه
وضائعون كالقوافل المسكينه

***

تصوري لا يصمتون في الاصيل
لا يبهجون للصباح في رؤى موكبه الجميل

***

يا أصحابي اني أغرق
وحدي في اللجة موثق
مدوا أيديكم قولوا كيف الحال .

وهو اذن في حاجة الى قلب حنون يركن اليه ويستريح من عناء نضاله ، الى صدر يعانق أحزانه ويمسح خوفه ، فيفزع أحيانا الى الطبيعة ، وأحيانا الى أي رمز يرى فيه صدرا حانيا ، قد تكون الام أو الحبيبة أو الجد ، أو يتجسد له هذا الجد في شيخ يجثو فوق عصاه :

هذا شيخ يجثو فوق عصاه
في مشيته جدي .. يا جدي
ماذا يا ولدي ؟
عانق أحزاني وامسح خوفي
لا تربت بالكفين على كتفي
هذا .. لا يكفي

ولكن .. هل يقعد الشاعر عند الحزن والبكاء ؟ أم أنه يطمع في حياة فضلى ويضيء اليها الطريق ، ويثور من اجلها ، وما مدى هذه الثورة في أشعاره ؟!

ميزة عميقة نجدها في أشعار هذا الديوان . فالشاعر رغم انه أفرد قصائد خاصة عن مجتمعه بقريته ومدينته ، وكذلك عن أمته العربية وافريقيا واسيا « ثلاث أغنيات للعراق ـ دمعة على ذرى

بيـــروت ـ خمس أغنيات الى لومومبا ـ هيروشيما على صـــدر افريقيا » ـ رغم ذلك ، فهو حينما يتناول تجربته الخاصة انمـــا يعمق هذه التجربة ويثريها بحيث يتسع مضمونها ومدلولها ليعبر عن مأساة الانسان ، فهو يحزن ويأمل ويثور لنفسه وللانسان ، ويستخدم في ذلك خاصتين لتعميق مضمونه وشموله ، هما الرمز والاسطورة .

فالرمز يعينه على أن يتجاوز الفكرة التي بدأ بها قصيدته الى مضمون أعمق وأشمل وعلى أن يفسح من اطار قصيدته ليصبح اكثر رحابة وشمولا ، كما يمتد الرمز عنده ليعبر عن مدى ارتباط الانسان بالطبيعة ، فتصبح ظواهر الطبيعة في شعره شواهد حية ، يعطيهـــا سمات الانسان ، أو يعطي الانسان سماتها ، حتى ان الرمز يصبـــح عنده أحيانا هو الشيء ذاته .

الجد ترمد مقلتاه من البكاء
ودموعه الحمراء نزت في الشواطىء كالدماء
وأنين ساقية طوال الليل نيران ثغاء
عماتنا النخلات أسبلن الجفون
ولوين أعناق الغصون الى الفناء

ويتناول الاسطورة سواء كانت عربية أم غربية ، فينزل بهـا الى أرض الواقع ويعالج من خلالها قضاياه الخاصة والعامة ، وهو يثري بها الواقع حينما تخدم قضاياه ، ويرفضها بالواقع لتأكيد ثراء هـذا الواقع ، نرى ذلك في قصيدة « أوديب » الذي لا يعشو » التـــي تقوم على الاسطورة الاغريقية :

فقأت العين يا أوديب نور العين
كأن الصبح يعميها الى أين ؟
لقد سدت مسالكنا ... غراب البين
يكفن يومنا بالصخر ... هذه الارض منشقة .

فالشاعر في هذه القصيدة لا يقتصر على مأساة أوديب ، بـــل يتجاوزها الى يومنا الحاضر ليعبر عن مأساة الانسان في مجتمعـــه ومأساة الانسان في العالم ، وما غراب البين الذي يتحدث عنـــه الشاعر سوى الاستغلال الذي يكفن يومنا بالصخر ، وهو يمتد بالرمز الى أن يدفع حضارة أميركا التي تمرغ آدمية الانسان فـــي الطيـــن ، فيصور أوديب أســـود اللون ، ويرمز الى الحضارة الاميركيـــة ب « جوكاست » :

فما كنت سوى طفل شقي أسود اللون
تسلق نخلة شبت على صحراء لاجوس
فقالوا أسود كالقار ساق العار للكون
حضارتهم أيا « جوكاست » يا تنين
تمرغ آدميتنا على الطين .. على الطين

وينتقل من ذلك مباشرة بعد أن مهد الطريق ليعبر عن مأســـاة الزنوج في أميركا ، هؤلاء الزنوج الذين تنهض على أكتافهم حيـــاة زاخرة بالانتاج والابداع .. والالم :

وباسم التبغ والاحزان .. أسنان من اللؤلؤ في هارلم
زنوج يبدعون الكون من نبضهم المؤلم .

أنظر كيف يستخدم الشاعر الاسطورة السودانية في قصيـــدته « الجواد والسيف المكسور » ، في تصوير واقعه وواقع مجتمعه فـــي فترة من تاريخ نضاله :

ان كان ينصب كل يوم في شوارعنا قتيل
في عينه الخضراء يا عيني تناوحت الحقول
ونحيب « دوبيت » (١) يغني الهجر .. والايام غول
تاجوج (٢) أيامي فتانا الشوق يصحو في الاصيل
فنهارنا زيت وازميل .. تعاسات ذهول !

من أين للحب المرجى أن يجيء
وعلى العيون غمامة نبكي وأشواق تضيء
وجوادنا المسكين يكبو فوق أشلاء النهار
عريان ها أنذا بلا سيف يطيش ولا فخار
وقبيلتي عيناك مرج فيهما يبكي الكنار

على ان هذه النغمة الحزينة ليست استكانة من الشاعر واستفراقا في الحزن والضياع ، وانما هي اشفاق على نفسه وعلى الانسانية من طول الصراع الذي يستنفد حياة الانسانية القصيرة ، دون أن يـرى ثمرة كفاحه ، ودون أن يستطيع الاستمرار في رحلة الامل :

ان كنت بكيت الموت خشيت القبر
فالرحلة ما أروعها .. ما أقصره العمر

ومع ذلك ، فان هذا الصراع نفسه هو الذي يولد الامل فـــي قلب الشاعر ، فيجعله ينبثق من بين احساسه بالضياع كما ينبثـــق الصباح من الظلام :

وما كنت أعلم أن الظلام
يهدهد بين يديه الصباح
وان دموعي .. دموع الجنائز
تنهش في الصمت هذا النواح
وحتى خريفي .. خريف حياتي
يعانق كل الاماني الفساح
وذوب جراحي اذا ما صرخت
بكل عذابي .. تذوب الجراح

ويزدهر الامل في قلب الشاعر ، فيرنو الى حياة مشرقة يغمرها الحب والعدل والجمال يعيش في ظلها ، ليس الشاعر وحـــده ، بل كل الناس :

يا ظل الصفصاف أيا حب
مد فروعك واطرد كل غيوم الصيف
وافرش هذا الشارع بالعشب
حتى يخطر كل الناس على العشب
حتى ينبت زهر الحب .

فالشاعر لم يتكبد عناء تلك الرحلة الطويلة ، رحلة الغربة والنضال من أجل نفسه فقط ، بل من أجل الناس ، من أجل الاخوة :

من أجلكم يا اخوتي طرنا على مشارف المدى
من أجلكم هل تسمعون ذلك الصدى

وطالما ان الصراع قائم ، فالشاعر يعرف طريقه ومكانه من هـــذا الصراع ، فهو يناضل من أجل الحق ، ويشهر كلماته على الاعـــداء كالسيف ، ويستعيض عن سيفه المكسور بسيف يعري ظلمة الزيف ، ثم هو يدعو رفقة الكلمة الى النضال معه :

متى يا رفقة الكلمه
نجر الليل نصلبه على أجمه
متى يسري شباب النور في أعماقنا الهرمه
نشم حياتنا فجرا .. ربيعا مورق النسمه
ولا نشقى بمأساة الوجود الجهم كالاوزار

***

أمانا أن تكن أنقى من الانجم في الصيف
كليماتي أفيض بها تعري ظلمة الزيف
وأشهرها على الاعداء كالسيف
ولا تبقى ممزقة كلحن يرهب الاوتار

***

نميت الموت نشنقه .. ونحرق في اللظى الاكفان
ولا يخبو سراج العقل .. ينهد الدجى القضبان

***

والموت كبرياؤنا أن أوثقوا الحروف

هكذا رأينا الشاعر يتغنى آلامه وآماله الخاصة ، وآلام الانسان

---

(١) دوبيت : موال سوداني .

(٢) تاجوج : اسم فتاة في الاسطـــورة ، كان يحبها فـــارس يدعى المحلق .

وآماله في وطنه .. السودان ومصر ، وفي أمته العربية ، ثم انسان القرن العشرين في كل مكان يلقى فيه ظلما أو اضطهادا .. في افريقيا .. في آسيا .. مأساة الزنوج في أميركا ، وفي كل ذلك يرفع الشاعر يده ليشير الى كل ما في الحياة من زيف وعفن ، ويشير باصبع الاتهام الى الاستغلال والامبريالية ، ويحدد موقفه من الصراع ، فيتخذ من كلماته سيفا يشهره على الاعداء .

وان كان الشاعر قد أشهر كلماته على الاعداء ، فان افريقيا وآسيا والانسانية عامة تشهر سيفها على الاعداء نضالا من أجل الحق ، وهو حينما يتحدث عن مقتل « كينياتا » في قصيدته « الحزن يدق الليل » انما يرمز به الى افريقيا التي تقتال . وحينما يتحدث عن الطفل الذي يأخذ بالثأر ، انما يتحدث عن ثأر افريقيا كلها وعن انطلاقتها للثورة والتحرر :

لم تختفيا يا ظل العار
فالغابة سوف ترش النار
وسوف تدق الطبلا
والطفل تسلل ثم التقط النصلا
قبل أبويه وغطى بالاشجار
وجهين وهام على حزن الاحرار
والتمع الخنجر فوق اليد
مثل الدمع الاسود .. مثل الحقد

ضد الاستغلال ، والاضطهاد والقهر ، وفي مواجهة « الامبريالية » هذا الغول الجديد الرهيب الذي أخذ يعصف بالانسانية ويمرغ آدميتها في الطين .. ولدت الثورة في افريقيا .. وفي آسيا .. وفي كل مكان ..

طوكيو أم مذعوره
ألوية غابات مسحوره
والثورة تولد في آسيا
كالاشجار .. الامطار .. الثورة

موسكو

محمد فكري

ثائر وحب

شعر : أبو القاسم سعد الله

منشورات دار الاداب – بيروت

***

هناك ظاهرة بارزة تغلب على الشعر الجزائري الحديث ، سواء كان تقليديا أو مسايرا للاتجاه الجديد . وهذه الظاهرة هي ارتباطه بالشعب في جميع أطواره ومراحله من جهة ، وتجاوبه مع قضايا الامة العربية والتغني بأمجادها من جهة أخرى ، على الرغم مما كان يحيط به من حواجز وقيود .. على الرغم مما تعرض له الشعراء من تشرد وسجن واضطهاد .

واذا كان الشعر التقليدي قد قطع مراحل ايجابية على يد شعراء ممتازين ، أمثال محمد العيد ومفدي زكريا والاخضر السائحي وصالح الخرفي وغيرهم ، فان الشعر الجديد لم يصل بعد الى المستوى المطلوب . غير ان الحكم على هذا الشعر لا يقوم على ما يتضمنه من قيم فنية جديدة بقدر ما يقوم على تمثله للاحداث وانفعاله بها وبالتالي التعبير عنها في صدق واصالة وعمق .

ومجموعة « ثائر وحب » هي المجموعة الثانية التي يصدرها الاخ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، بعد أن صدرت له المجموعة الاولى « النصر للجزائر » سنة ١٩٥٧ . ويحتوي هذا الديوان الجديد على خمس وعشرين قصيدة ، من ضمنها خمس قصائد سبق له أن نشرها في مجموعته الاولى ، وقد أعاد نشرها هنا بعد أن حذف منها بعض الابيات وغير البعض الاخر ، ولعله فعل ذلك لانه لم يعد يرضى على بعض الصور والالفاظ فيها .

وسعد الله ، في علمي ، أول من أدخل الطريقة الحديثة في الشعر الجزائري ، وكان في ذلك متأثرا بالاتجاه الرومانسي ، الذي نشأ على يد شعراء المهجر وأصحاب مدرسة أبوللو . وقصيدة « طريقي » أول قصيدة له من هذا النوع ، جعل مصدرها الثورة المجيدة وروحها الرومانسية . أما أجواؤها فهي الاختناقات التي عاشها الشاعر في عاصمة الجزائر . ولذلك فان لهذه القصيدة بالذات دلالة تاريخية مهمة . فقد نظمت سنة ١٩٥٥ ، وهي فترة تعد أروع وأقدس ما عرفه الشعب العربي في الجزائر منذ عصور . نظمها ، كما أخبرني بذلك في احدى رسائله ، في وقت كانت فيه الجزائر تقيم الافراح والاعراس ابتهاجا بقيام ثورتها الخالدة ، وكان البعض من الناس يشكون أمر الثورة ويتهمون القائمين بها بأنهم قد غاب عنهم أن يقرؤوا حسابا لفرنسا .. القوة والعظمة والجبروت. لقد عرف الشاعر عندئذ طريقه .. طريق كل ثائر يدرك ما تنتظره منه الجموع ، وما تهمس به شفاه الشعب الذبيح ، وسار في طريقه .. يغني للحياة والحب والانطلاق ، لا يأبه لاولئك الذين تخاذلوا عنه ، ولم يستثرهم نداؤه الصارخ :

حطموا القيد وغنوا للحياة
وافتحوا نافذة الافق الرحيبه
واعشقوا النور سماوات خصيبه

فهو قد اختار طريقه عن وعي ومسؤولية ، وانفتاحه على ظروف شعبه وحقيقة مأساته يجعله يرفض أن يكون له مذهب آخر ، فيهتف بالخائفين والمتخاذلين :

ان هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقي
فقد اخترت طريقي !

وشعر سعد الله في هذه المجموعة تعبير مباشر عن القمة ، ان صح التعبير . قمة الشاعر ، كما أراد هو أن يعرف الشعر في المقدمة ، قمة الثورة .. قمة الاطلس . وهو في هذه الاغاني مع شعبه أبدا .. يزحف معه نحو القمة ، قمة النصر والخلاص . وقد جعل القمة في الطرف المقابل لاعماق الهاوية ، لا يكاد يحول عينيه عن الخيط الواصل بينهما ، كما يتجلى لنظرته الشاعرة . فالقمة ثورة وحمم واعصار وزغردة .. والهاوية ركود وعقم وتخلف . القمة حاضر يزهو بأصداء الثوار وأهازيجهم الهادرة .. المضمخة بروائح البارود ، والهاوية ماض يئن تحت سياط العبودية وعملية الارهاب والاستفزاز والافناء :

كان حلما واختمار
كان لحنا في السنين
كان شوقا في الصدور
أن نرى الارض تثور
أرضنا بالذات أرض الوادعين
أرضنا السكرى بأفيون الولاء
أرضنا المغلولة الاعناق من قرن مضى
كان حلما ، كان شوقا ، كان لحنا ،
غير ان الارض ثارت
والهتافات تعالت
من رصاص الثائرين .

وهذا الانطلاق المزدوج ، هو تجربة استمدها الشاعر من الشعب .. الذي لم ينس لغته وعقيدته وتقاليد أجداده .. ولم يفقد هويته وانتماءه الى الامة العربية .. هذا الانتقال بين القمة والهاوية ، بين الماضي والحاضر ، يطالعنا في أغلب قصائد المجموعة . يقول

الشاعر في قصيدة « البعث » مشيرا الى ماضيه كعربي :

وجهي الاسمر في بئر عميقه
يلثم الاقدام والايدي الغريقه
في الدماء
والنداء .. يا لذلي بالنداء !

ولكنه لا يلبث أن يلتفت الى حاضره ، فيصحو من شكاتـــه ، وتأتلق نظـــرته ، وتستشرف المنطلق الشامخ ، فيهتف بـــدوره في شموخ :

ان أهلي عرب الاطلس ثاروا ..
بالسنين الماضيه
بالسياط الداميه

حتى الفلاح الذي سلبت منـــه أرضـــه .. كمـا تسلب الآن .. في عصر حرية الشعوب وأبعاثها .. من أبناء الامة العربية فـــي فلسطين وغيرها ، يرفض واقعه ويتمرد على ماضيه . فبعد أن يروي قصته عبر عصور الاحتلال البغيض بنغمات حزينة في قصيـــدة « انها أرضي » الرائعة :

حتى م أفترش الحصير
وأساكن الكوخ الحقير
وأساهر الحرمان والالم المرير

ينتبه فجأة ليصيح بأعدائه :

هذا ترابي من قديم
يا مالكين !
تفديه كل جوارحي ودمي الحميم
يا مترفين !
انا هنا ، أبدا هنا
ذعرا واعصارا ونار
لا شيء يمنع سيلنا .

ثم يختم قصته ، وهو يلمح مستقبله المشرق :

سنعيش أحرارا وصيد
في أرضنا البكر .. الولود .

والحقيقة ان الشاعر لا يقف عند الحاضر بأهازيجه ودمائه ، ولكنه يظل سائرا في طريقه ، تاركا أحزان الماضي ومآسيه وراءه ، ليستشرف ربيع الجزائر .. مستقبلها الوضاء ، ذلك انه :

من اللهب الازرق
ومن حمرة الشفق
ولون الدم المهرق
سيصحو الربيع

وهذا الربيع ليس مجرد ربيع فحسب ، وانما هو يمتاز بجدته :

ربيع جديد جديد
ويشرق في أرضنا
صباح وليد وليد

والتغني بمستقبل الجزائر لا نجده في قصيدة « ربيع الجزائر » فقط ، بل اننا لنلمحه أيضا في قصيـــدة « الخائن » و « الطين » وغيرهما . أن حرية الجزائر تتخذ في قصائد شاعرنا رموزا مختلفـــه من ربيع وعناق وغد منشود الى فرحة عارمة وشروق وصباح مقبل . ولكن هذه الرموز الموحية يسبقها دائما اصرار وصمود وتحد ، وهذا الاصرار يواجهنا أيضا في قصائد مختلفة مثل « الدم والشعـــلة » و « اصرار » و « خطى السنين » وغير ذلك . والشاعر في ذلـــك كله مع شعبه .. لا يغني الا له ، والمعروف عنه انه لم يحترف الشعر ولا تخصص فيه ، وانما يقوله في تأمله للاحداث وصمته مع الطبيعة ، وكان هدفه أبدا التعبير عما يجول في نفسه ويدفع عواطفه الى نـــوع من التأزم حاد . ولهذا فهو لا يقول الشعر في كل حادثة ، بعبـــارة أخرى لا يكتب تاريخا ، وانما يجب أن يكون لما يقوله روح وعاطفـــة عارمة . ولعل هذا ما جعله يقول في قصيدة « الجرح والمصير » هذه الكلمات الخاشعة :

الجرح جرح الشعب
فالثموه واطلبوا الغفران
وخفضوا من صوتكم ..
فالصمت عند ضجة السلاح
وروعة الكفاح
من أقدس الايمان .

ويبدو ان الشاعر قد اختار قصيدة « ثائر وحب » لتكون عنوانا لمجموعته هذه ، ذلك ان قصائد الحب في الواقع قليلة بالنسبـــة الى القصائد الثورية الاخرى . وهذه القصيدة نفسها تجمع بيـــن الحب والثورة في نغمة حزينة ، تنصب في سلاسة وعذوبة . يقـــول الشاعر فيها :

« أوراس » والدماء والعرق
وصفحة السماء والغسق
والافق المحموم راعف قلق
كأنه وجودي القلق
قد ظمئت عيونه الى الغلق
وسال من أطرافه دم الشفق
ونجمة من الشمال تحترق
كقلبي الذي يدق
بذكرك العبق
حبيبتي .

فالشاعر هنا قد ترك حبيبته والتحق بالقمة ، والصور التي تمـر أمام ناظريه ، والاصوات التي تلامس سمعه .. كلها تمتزج بحبيبته ، وهي حاضرة معه في كل حين . والشاعر في هذه المجموعـة مخلص لوطنه بقدر اخلاصه لمشاعره الذاتية . انه يعبر عنها في غير حرج .. وهذا أمر غريب .. أمر لا بد أن يستغربه كل من له اطلاع على الشعر الجزائري الحديث . ووجه الغرابة هنا ليس لان حب الشاعـــر يختلف عن حب الشعراء الاخرين ، وانما لان هذا الشعر .. هـــذا البوح بالمشاعر الذاتية ربما يكون أول ما عرفه الشعر الجزائري في العقد الماضي . ذلك ان الشاعر الجزائري قبل سعد الله كان يلتزم نوعا من العفة والتقوى والورع . كان ينظر الى عواطفه على انهـــا غير ذات موضوع .. لا يحق لاحد أن يطلع عليها . وهي عفة مفروضة ، فهو يعرف مسبقا أن المجتمع الذي يعيش فيه يترصده .. انـــه يرفض مثل هذا الشعر .. وينبذ كل شعر يكون الحب موضوعـــه بشكل من الاشكال .

ولكن سعد الله هدم السد الذي اقامه المجتمع فـــي طريقـــه ، وفتح منفذا لعواطفه المرهفة ، ولم يمنعها أن تتحول الى كلمـــات خافقة .. تهتز شوقا وحنينا . وكيف كان الشاعر قبل أن يخفق قلبه حبا وشغفا ؟ أن قصيدة « صورة » تقدم لنا الجواب الحـــاسم عـــلى ذلك :

يا صورتي
قد كنت شيئا تافها
له فؤاد من تراب

وحين يجتاح سحر الحب أعماقه .. ويتركه ماضيه الذي لـــم يكن يختلف عن ماضي شعبه القريب ، نجد الشاعر في وضع اخر . لقد اجتاز مرحلة الانغلاق والتفاهة ، وأصبح في امكانه أن يخـاطب صورة الحبيبة :

يا صورتي
تزخرف التراب وانتشى الفؤاد
ورفرفت بالحب جنتي
وصرت شيئا واضح الهدف .

وهو بهذا قد تحدى المجتمع والتقاليد .. عندما أصر على أن يكون لعواطفه الخاصة متنفس سمح ، ولكن التقاليد قابلته من جهتهـــا

بالتحدي والحرمان ، ولم تبق له سوى صورة :

لها عينان .. منبعا غرام
أغوص فيهما الى الاعماق
لكنني ظمآن دائما !

والظمأ لوعة وأســـى . ويكتشف الشاعر « الحزن » المرير ، فيخاطب حبيبته بألفاظ شاعرة :

الحزن يا وحيدتي
يمص الشوق في العيون
يغتال رعشة القلوب
الحزن يا وحيدتي ظلام
نجتازه بلا شموع

ولكن الشاعر المحروم يستمد من حبه العنيف الاصيل القـــدرة على الرؤية .. حبه يمده بطاقة النهار . والرؤية هنا أمل .. يشيعه في رحلته الرهيبة مع الحزن ، اذ هو لا يخشاها :

لان بعدها الربيع والصباح
والناي والغناء والقداح
والفرحة النشوانة اللقاء

ولكن الشاعر .. العاشق المحروم يخرج من رحلته مع الحزن ، وعلى لسانه مرارة وفي لهاته سؤال ملح ، فهناك بعد « شيء لا يباح » ويود من اعماقه ان يعرف لم لا يباح :

هناك شيء لا يباح
يعذب القلوب ينكأ الجراح
لو غاب عن عيوننا ثوان
نحسه مرارة أحزان

انه يعود ليتحدث عن رحلة أخرى مع الحب .. مع الشيء الذي لا يباح . والظاهر ان الرحلتين قد امتزجتا او اصبحتا رحلة واحدة. فالحزن رفيقه ، غير انه لم يعد ثمة أمل لا في اللقاء ولا في حل اللغز المسحور والسؤال الملح . وهذه الرحلة نفسها قد دفعت حبه الـى القمة :

ان كان ألف مرة .. مليون
فحبي المجنون
لا يعرف الارقام
لو انه يباح .

ويظل سائرا في رحلته ، ولكنها لا تنتهي به الى معبد اليقيـن الذي ينشده ، بل ان سؤاله يزداد بدوره الحاحا ويبقى بلا جواب . وكيفما كان الامر فان الحب يتخلل عبارات سعد الله ويربط بيـن كلماتها وحروفها بصورة لم يعرفها الشعر الجزائري الحديث في حدود علمي . ولسنا نجد مثل هذه النغمة الا لدى شعرائنا الشبان كالخرفي وخمار وغيرهما ، هذا مع الاختلاف في الاسلوب والقيمة والاتجاه .

وبعد .. فهذه خواطر مرت بذهني اثناء قراءتـــي لمجموعة الاخ الصديق ابي القاسم سعد الله . واعتقد ان قصائد شاعرنا تمتـاز بالبساطة ، ولكن هذه البساطة نفسها تتضمن الكثير مـــن الصدق والقوة والعمق . وهي زاخرة بالمشاعر الحارة واللمسات الفنيـــة المشرقة ، مع ان بعض القصائد تتضمن تقريرية مباشرة وتتخذ طـابع النثرية ، ولكنها تستمد حرارتها وعفويتها من الموضوع الذي تعالجـه ومن ارتباطها بالقضية الوطنية أو المشاعر الذاتية التي اشار اليها الشاعر في المقدمة .

كنت قد قلت في تعليقي على كتاب المؤلف « دراسات في الادب الجزائري الحديث » بمجلة « المجاهد الثقافي » الجزائرية (عدد ٣ ص ٢٢ ــ ٢٩) ان الاخ سعد الله قد عمد الى تغيير بعض الفقر وحذف قسم من البعض الاخر ، الامر الذي ادى الى اضطراب النص وغموضه .. وذلك دون أن يعيد صياغة العبارة صياغة جديدة . وأحب أن أكرر هنا ما قلت هناك ، فقد افتقدت بعض الابيات التي وردت في قصائد كانت معروفة لدي سابقا . ومن ثم كان لا بد من الرجوع الى القصيدة كما نشرت في مجموعته الاولى لفهم مقصده .

لقد صدمني مثلا قوله في قصيدة « الثورة » (اننا كنا كرامـــا اسخياء ــ زرعوا فينا الولاء ــ واعدونا ليمحوا ذاتنا ــ ليذيبونـــا اندماجا وفناء ــ أي جرم أن نكون الاسخياء) . فلم افهم معنى السخاء في هذه القصيدة ، وتساءلت هل يعني ذلك اننا كنا راضين عمـــا اعدونا له من اندماج وفناء ؟ وما معنى قول الشاعر : أي جـرم أن نكون الاسخياء ؟ وحين رجعت الى القصيدة في صورتها الاصلية ، اتضح لي تساؤله . فهو يقول هناك (ولقد صرنا كراما مثلما كنا كرام ــ نمنح الاعداء وفرا من رصاص) وبعد الابيات السابقة يأتي قولـــه (أي جرم أن نكون الاسخياء ــ فنكيل لهم أيدينا موتا زؤام) . وليس في هذه الابيات اي غموض او التباس !

وانا لا احاسب الشاعر على هذا التغيير والحذف ، فذلك مـــن حقه ، فهناك تغييرات كانت موفقة دون شك ، فقد غير البيت التالي مثلا من (ان قعقعت في افقكم عزماتنا وسلاحنا) الى (ان قعقعت في وجهكم عزماتنا وسلاحنا) . فكلمة « وجهكم » في نظري ادل علـــى المواجهة والتحدي . الا انه كان ينبغي له ان يتجنب ذلك في القصائد التي تقوم على الانصباب والترابط بين ابياتها مثل القصيدة المذكورة. وهناك بطبيعة الحال حذف لم يكن له اثر على بناء القصيدة ، كما هو الحال مثلا في قصيدة « الطين » ، وان كان المرء ينتبه الى ان احـــد المقاطع يحتوي ، دون البقية ، على اربعة ابيات فقط !

واذا كانت بعض قصائد الصديق ابي القاسم سعد الله تذكـر في عناوينها ومواضيعها بقصائد لشعراء معروفين في الادب الحديث، امثال الفيتوري وبلند الحيدري وغيرهما ، فانه من الصعب الحكم على مدى تأثر سعد الله بهذا الشاعر او ذاك . فالشاعر لم ينشر كل شعره من ناحية ، ثم ان المراجع من دواوين الشعراء غير متوفرة من ناحيـة ثانية . وعلى أي حال فان للشاعر في اعتقادي شخصيته المتميزة في هذه المجموعة . واذا كنت شخصيا اتأسف لشيء ، فاني اتأسف اشد الاسف لتركه كتابة مثل هذا الشعر الجميل منذ ما يقرب من عقـد . وكم الححت عليه في العودة الى الشعر ، ولكنه كان يعتذر دائما بأنه دخل « حظيرة التاريخ » ولم يبق له سوى ذكريات عن الشعر والادب! وهكذا سكت حتى الان الشاعر الذي كان على حد تعبيره « يعتقد ان الكلمة المكتوبة لا تقل صلاحية عن السلاح ، ان لم تفقه مضاء » .

والشاعر يعلم ان الامة العربية في ظروفها الراهنة احوج الـى الكلمة المكتوبة منها اليها في اي وقت مضى . ثم الم يقل هو نفسه في قصيدة « البعث » هذه الكلمات الصامدة :

من فم الاطلس نشدو : يا فلسطين الدم
من هنا ، من قمة مشحونة بالثائرين
من هنا ، من مشرق البعث المجيد
من ذرى الاطلس صخاب النداء
سوف يمتد الفداء
لفلسطين التي تتلو الولاء
والتي لما تزل حمراء جرحا وسلاح .

وعلى هذا فاني آمل ، وقد عبرت له عن املي هذا قبل مـــدة قصيرة ، أن يضم صوته الى اصوات شعراء الامة العربية في كل مكان، فان الكلمة المكتوبة لن تفقد ابدا ما لها من قوة وفعالية ومضاء .

الجزائر

ابو العيد دودو

ابن السلطان

مجموعة قصص للدكتور عبد الغفار مكاوي

سلسلة « اقرأ » ، دار المعارف بمصر ، ١٢٤ ص

***

ان لكل كاتب رؤياه الخاصة لهذا العالم . ذلك أن كل واحد منا (ولعل هذا اصبح من قبيل الاوليات) يتميز عن الاخرين من الناحية السيكوفيزيائية رغم العوامل الواحدة المؤثرة التي تنصهر تحت اتونها. ونحن نقرأ مجموعة « ابن السلطان » للدكتور عبد الغفار مكاوي وضعنا في ذهننا نية البحث عن هذه الرؤيا الخاصة التي سوف تعلنها القصص من غير شك .. والواضح انه ليس لنا الحق في ان نحدد هذه الرؤيا ، فنحن نعترف بترك الفرصة للقارىء يستخلصها بنفسه ، فهو بالتالي سيستنتجها وفق رؤياه الخاصة أيضا . وقبل الحديث عن هذه المجموعة يجب ان نسجل هنا ملاحظة رئيسية الهمتنا القصص اياها . وهي أن اغلب الابطال يعانون من ازمة التشويه السيكوفيزياني (ابن السلطان (نفسيا) ، حادثة (فيزيقيا) ، الصبر (نفسيا) ، المدام (نفسيا) ، الزواج الابدي (نفسيا) ، في خطر (فيزيقيا) ، القضية (نفسيا) ، الخ.) . فكأن عالم هذه المجموعة عالم مشوه ، وما اشبهه للاسف بعالمنا الارضي حيث الناس ليسوا كلهم سعداء . فالكل يعاني آلاما مبرحة ، والكل يحزن بقدر ما يفرح ... ان الشقاء في كل مكان . والرحمة والعطف ليسا الا من قبيل عالم المثالية المريض. تلك هي حقيقتنا في الارض ، وتلك هي الحقيقة المؤلمة التي يجب ان نزيح عنها النقاب ونترك وجهها عاريا تلفحه الشمس ، شمس الحقيقة المرة .. فتحت هذه المفاهيم يطرح الدكتور عبد الغفار مكاوي قضايا ابطاله .

القصة الاولى التي تحمل المجموعة عنوانها هي قصة شخص يعتبر نفسه ابنا لسلطان ما ، ذكراه ما تزال منطبعة في ذهن الكاتب منذ الصغر كما هي منطبعة في اذهان باقي الناس ، والسلطان هو امل الجميع وكل الناس يعتبرون ابناءه ، بوجوده يوجد الخير والمحبة ، وهو دائما غائب ، ولكن هناك املا في عودته « وحين يعود .. لن تجدني اجوع .. أو أتشرد في الشوارع .. كل الناس سيكونون اخوتي ... والسلطان هو ابونا جميعا . » الكاتب برغم انفصاله عن ابن السلطان لا يزال ينتظر بطله كما ينتظر هذا الاخير ظهور السلطان على « فرس ابيض في يده سيف طوله الف ذراع » . اما القصة الثانية فهي بعنوان (حادثة) ... ويعود بنا الكاتب في هذه القصة الى ايام قريبة كان فيها « ناس زمان » طيبين الى حد ان الواحد منهم يستطيع ان تؤثر فيه حادثة بسيطة حتى الموت .. لا يزال البطل يتذكر امه قبل ان تلفظ النفس الاخير ، وهي تتألم كثيرا عند سماعها موت امرأة وابنها تحت عجلات الترام .. ان امه لم تصدق هذا .. ولكن الكاتب يتساءل فيما بعد ماذا عسى كانت امه تفعل لو انها بقيت على قيد الحياة حتى تشاهد مأساة هيروشيما « ترى او حكيت لك هذا يا امي فماذا كنت تقولين ؟ اتراك يا امي كنت تصدقين ؟ » وان ما يمكننا ان نأخذه على القصة هو كونها شبه خالية من قواعد القصة الا من حسن النية ، أما اسلوبها فهو سلس .. وان ما نقوله عن هذه القصة نقوله عن (واحد من اهل الكهف) فهي ايضا قصة باردة لفتها بين العامية والفصحى ... شخص من الطبقة الدنيا احب ابنة حكمدار .. وكان يتخيل فيها الانموذج الاول للعفاف والمثالية .. الخ. ولكن بعد غيبة طويلة يلتقيها وقد تغيرت كلية حيث اكتسبت اخلاق الممثلات على الشاشة .. وكنتيجة لتطور هذه الاحداث يصبح البطل غير مفهوم على الاطلاق ويبدو له ان الكل لا يفهمه ولا يعترف به حتى الخادمة ام محمد ، وعدم الاعتراف نجده في القصة التي تتلو وهي قصة (الصبر) .. فهي قصة رجل لا يعترف بالوجود الانساني لزوجته ولابنها ، انه يعاملها معاملة وحشية ، ومع ذلك فان هذه القصة ترتفع الى مستوى الدراما ، الا ان في شخصية الطفل بعض الافتعال ، فمستواه الفكري لا يخوله كل ما قام به في القصة من دور .. أما (التابوت) فهي محاولة ابداعية تضيع فيها رؤيا الكاتب .. انه لا يركز على رؤيا معينة ... ومع ذلك ففي القصة بعض الشاعرية. لكن (المدام) ليست سوى قصة مدام تنسى ثم لا شيء آخر ، وهذه القصة ضعيفة اجمالا . وبدور حوادثها في المانيا .. والكاتب لم يستطع ان يتوفق فيها ، وبالمثل ، نلمس هذا الضعف في قصة (القط) فهي ضعيفة أيضا .. قط يحن عليه الكاتب في أول الامر ولكن القط يصبح شرسا فيما بعد فيقتله الكاتب ويردد : « ولكن هل جنى عليه أحد ؟ – وهل كان في وسعنا غير ما فعلنا ؟. » انها الكلمات نفسها التي رددها الكاتب في بداية القصة .. ثم تأتي بعد ذلك (مولانا السلطان) قصة انسان فاشل في الحياة حاول ان يبحث له عن عمل فلم يوفق ، ولذلك احترف المسرح (!!) مع فرقة كان مديرها جزارا.. وحكم على البطل طيلة عشرين عاما بأن يردد كلمتي « مولانا السلطان» في كل عرض في المسرحية .. فلما اراد ان يغير هذا الروتين ويضيف الى الكلمتين عبارة من عنده تجمع حوله الممثلون « وصفعوه على وجهه وركلوه بالاقدام » . والقصة مكتوبة بضمير المتكلم (اغلب القصص كذلك) . أما قصة (الزواج الابدي) فتروي أن الكاتب جاء لامرأة مصروعة تعمل عندهم في البيت خادمة برجل ذات ليلة ، وكان يحاول ان يمزح معها فقال لها انه زوجك .. وغاب الكاتب مدة عن قريته (عشرة اعوام أو عشرين كما يقول .) ولما عاد وجد أن لا شيء تغير بالبيت ، فالمرأة المصروعة هي الاخرى ما تزال تنتظر منذ تلك الليلة زوجها الذي ذهب من غير رجعة والذي كان الكاتب قد اكتراه ليقوم بالدور تلك الليلة . ولست ادري لماذا كتبت هذه القصة ؟ هل كتبت ليقول لنا صاحبنا عن المرأة المصروعة (وكانت زوجته قد خانته مع رجل اخر) انه يحترمها ويكبر فيها هذا الوفاء وهذه العاطفة للرجل الذي رأته مرة واحدة في حياتها فارتبطت معه بهذا الزواج الابدي ام اراد أن يقول شيئا آخر ؟ اعتقد انه كان يحاول التوفيق بين

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر الفروي	٢٥٠
● وجدتها	لعدوى طوقان	٢٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٢٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٢٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٢٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠

« قضيته » وقضية امرأة مصروعة تعتبر في عداد الحيوانات .. ان القصة مع ذلك تعاني من مرض المثالية ، الا انه بقدر ما خاب ظني في القصة السابقة ارتحت للقصة التالية وهي قصة (في خطر) . وانا اقرأها تمثلت مباشرة « نجمة » كاتب ياسين . لست ادري لماذا رغم المفارقة بين الام في قصة عبد الغفار مكاوي ونجمة للكاتب الجزائري المعروف . هل هو الرمز المباشر الذي أستطاع ان يجمعهما في ذهني ؟ لست ادري بالضبط ... فقصة (في خطر) ... هي قصة ام كانت تعاني مرضا ... ابنها هو البطل ... يتوصل ببرقية من ابيه يخبره فيها بأن امه في خطر ... وخلال المسافة التي يقطعها الى المنصورة تدور في ذهنه تخمينات حزينة جنائزية كموت امه مثلا.. ويصادف هذا الحدث العدوان الثلاثي على البلاد العربية ، فيحاول الكاتب التوفيق بين الحدثين فينجح في ذلك .. لقد هزتني القصة بالفعل . فامه لم تمت وكذلك الامة العربية ... مجرد نوم كانت تجتازه الامة و « النائم يصحى » كما يقول سائق التاكسي في القصة. لكن الكاتب لا ينجح دائما فهو بقدر ما يهزك هنا يحطك هناك .. ان (القضية) قصة ليست لها احداث ، ليس لها بداية ولا نهاية .. كل ما في الامر ان امرأة مجنونة تردد في الرصيف هذه الكلمات في كل وقت : « الولد اخذوه من امه وابوه .. السياسية والجاسوسية والانجليز واليهود .. قطعوا رأسه واخذوه من امه وابوه ... القضية يوم تسعة شهر تسعة سنة تسعة وتسعين ... » لست ادري ماذا اراد ان يقول الكاتب بهذه القصة . فلا نحن عرفنا القضية ولا نحن تعرفنا على مصير البطلة ولا لماذا تردد تلك الكلمات ... يمكن للمرء ان يتساءل اذ ذاك ما وظيفة الفن آن لم تكن ايجابية؟ وفي احدى الساعات نزل الكاتب الى « مصنعه » كما يسميه الذي يصنع فيه ابطال قصصه، فاتفقا ان التقى احدهم وهو (اليتيم) بطل قصته ، فدار بينهما حوار حول مصير هذا البطل ، لكنهما لم ينتهيا الى حل . وفي ختام القصة يقول الكاتب « حدث هذا منذ اسبوع (اي الحوار) وانا منذ ذلك اليوم لم اتذكر الصبي اليتيم .. وما زلت ابحث له عن مصير». هذا هو محتوى القصة . اما القصة الاخيرة في المجموعة فهي قصة (ايها الحبيب) وهي صلاة الى حبيب مجهول التقاه الكاتب في المهرجان ثم افترقا دون ان يعرف الواحد منهما عن الاخر بعد ذلك اي شيء.. يبقى البطل يأمل ـ عبثا ـ لقاء هذا الحبيب ـ الذي ضاع في زحمة المهرجان ـ كل عام وكل عام وكل عام ..

بعد هذه الملاحظات التي ابديناها نستطيع ان نجملها في ما يلي :

١ ـ ان الكاتب كان يحاول أن يكتب في بعض الاحيان بلغة اقرب الى العامية واخرى بالفصحى مما يدل على انه لم يستقر على رأي،

٢ ـ ان أغلب القصص كتبت بضمير المتكلم .

٣ ـ من الناحية الفنية لم يوفق الكاتب الا قليلا ، فهو يكتب بمستوى القصص العربية الاولى ، أي انه لم يطور في المنهج القصصي .

٤ ـ اغلب القصص تصدر عن تجارب شخصية مفرقة في الخصوصية ، وهذه الملاحظة ليست مأخذا على الكاتب ولكن الذي اردنا أن نقوله انه لم يوفق في معالجة تجربته الشخصية ..وكثيرون هم الذين يفشلون في هذا . فالكاتب في بعض الاحيان لا يفرق بين الحياة والفن مع ان الفرق بين الحياة والفن واضح . فهو اما ينقل الحادثة نقلا فوتوغرافيا (القضية ، الصبر) واما انه يشوهها (القط ، اليتيم ، مولانا السلطان ، الزواج الابدي ، واحد من اهل الكهف) .

٥ ـ قلما يرتفع الى مستوى ابداعي جيد (ايها الحبيب ، مع بعض التحفظ) ، التابوت ، في خطر) . ثم في النهاية فان المجموعة تدل على خطوات اولى في ميدان القصة الشائك ، خطوات واعدة ، تمضي على هدى نور ازلي ، هو نور المحبة والانسانية من اجل انسان ـ هذا ـ العالم ..

المغرب **محمد زفزاف**

كان الناقد « رامي حسام الدين » يعلن : « انا لست قاصا ولا روائيا ، بعد أن أثبت اخفاقي . فكم من بداية فاشلة ينطوي عليها درج مكتبي، مشاريع روايات وئدت في خاطري وهي لم تزل حلما !»

فيقول له كل من صديقيه الاديبين القصصيين فوزي المجاهد وخالص نعماني ، يحاورانه : « يوم يحين لك ، يا رامي ، أن تألم حتى تنصهر في بوتقة الالم نفسك ، ويوم يحين لك أن تحب المرأة الى درجة العبادة .. هنالك تستحيل البحيرة الساكنة في اعماق نفسك الى بحر صاخب هدار ، وتمنح أروع الفكر والاحاسيس ! ».

وعندما يدعوه صديقه الاديب عبد المعين هدايت ، ذو الاهتمامات السياسية الواضحة ، الى المشاركة في تاسيس الحزب الجديد ، يجيبه رامي حسام الدين : « كنت أتمنى ، يا عبد المعين ، لولا حرصي على « لا انتمائيتي » ، كما تسميها أنت » ، فيقول هدايت بمرارة : « عنادك يجعلك ، أنت والحزب ، في وضع الخاسر. ثق أنك تستحق أن تسمى وزيرا للثقافة والارشاد القومي في أول وزارة تشكل ! » .

ثم يتعرف الناقد رامي حسام الدين على الاديبة البرجوازية الشابة « لبنى آل الامير » ، التي تحمل اليه مخطوطة روايتها كي يجري عليها قلمه العطوف .. فهل تتحرك البحيرة الساكنة وتستحيل الى بحر صاخب هدار ؟

واذ يغضب منها ، في يوم من ايام كانون ، بسبب مفهومها البرجوازي عن الشرف ، ويمضي في الطريق هائما على وجهه ، فيسمع المذياع يعلن ان أباها البرجوازي الكبير عزمي آل الامير قد امسى وزيرا للمالية ووزيرا للاقتصاد بالوكالة .. فأية رياح عاصفة جديرة بأن تهب في أعماقه ؟ وهل يتاح له ، بعد ، ان يبدع عمله الروائي البكر الذي طالما تطلع اليه ؟

سؤال يجيبك عليه الروائي السوري فاضل السباعي في :

رياح كانون

الرواية التي ترصد ، في ٤٤٨ صفحة من القطع الكبير ، أخصب ما يعيشه المثقفون من تجارب عاطفية وابداعية وفكرية . نحو جديد في الفن الروائي ، يتسم بالصراحة الجريئة والصدق البالغ حد الروعة . كتاب اضطلعت بنشره دار اليقظة العربية ببيروت بالاشتراك مع :

دار القصة العربية

حلب (سورية) شارع اسكندرون